الاستراتيجية التوجيهية في خطاب الإبراهيمي؛ مقاربة تداولية

The Directives Strategy in Al-Ibrahimi's Discourse: A Pragmatic Approach

د. محمد مدور

جامعة غرداية (الجزائر)

تاريخ الإرسال:2020/02/25 **تاريخ القبول:** 2020/03/09

ملخص:

تتناول هذه الدراسة ملامح الاستراتيجية التوجيهية في خطاب الإبراهيمي، من خلال استقراء وتحليل مجموعة من الأمثلة الواردة في مقالات الشيخ، من منظور المنهج التداولي ونظرية أفعال الكلام، وبيان مدى اعتماد الكاتب على العناصر اللغوية، وتوظيف رتبة المتكلم في إصدار التوجيهات، وأثر ذلك في التأثير في سلوك المخاطبين، والغاية من ذلك إبراز مسوغات استعمال الاستراتيجية التوجيهية، ومدى ملاءمة الأفعال للمواقف.

الكلمات المفتاحية: التداولية، استراتيجية، أفعال الكلام، التوجيهيات، الخطاب الإبراهيمي، التعليم.

Abstract:

This study examines the features of the directives strategy in Sheikh Al-Ibrahimi's speech, by extrapolating and analyzing a set of examples mentioned in the Al Ibrahimi's articles, from the perspective of the pragmatic approach and theory of speech acts. It also shows the writer's reliance on linguistic elements, and employing the rank of the speaker in issuing directions, and the impact of this on the behaviour of the two addressees. The aim is also to highlight the rationale for the use of the directives strategy, and the relevance of the actions to situations.

Keywords: Pragmatic, strategy, verbs, directives, discourse, AL-IBrahimi, education

مدخل:

للمجتمع سياقات وأحوال كثيرة ناتجة عن تشعب شؤون الحياة وتنوعها، مما يتطلب من المتكلمين استعمال خطابات متنوعة، فالمعلم مثلا هو بحاجة إلى استعمال أكثر من استراتيجية في خطابه، بسبب تعدد السياقات ومواقف التعلم.

والتداولية هي علم استعمال اللغة، وفيها تتجلى كفايات المتكلم التخاطبية، ومقدرته في الجمع بين وظائف التبليغ ووظائف التهذيب، والتداولية هي خطاب لا يكتفي بتوظيف العناصر اللغوية، إنما هو يستعمل عناصر تداولية غير لسانية كالقصدية والسياق والمقام والحجاج ورتبة المخاطب، واختيار الاستراتيجيات الملائمة للموقف الكلامي.

تنطلق هذه الدراسة من نصوص الشيخ الإبراهيمي، التي كتبها في أواخر الأربعينات يعالج من خلالها المشكلات الاجتماعية والتربوية في ظل ظروف الاستعمار الفرنسي وسياسته المتعمدة تجهيل الشعب والقضاء على مقومات هويته، وأمام هذا الوضع المتردي تجندت مدارس جمعية العلماء، وفق برنامجها الإصلاحي والتربوي لتعليم الناس وتثقيفهم وتنوير عقولهم بالمعارف وقلوبهم بالإيمان ومحاربة البدع والخرافات، وقد كلّف المعلمون الذين خرجتهم جمعية العلماء بالقيام بهذه المهمة. وحول هذه القضايا كتب الإبراهيمي الكثير من مقالاته متبعا استراتيجية معينة في مخاطبة جمهوره وقرائه.

واستراتيجيات الخطاب تعنى بدراسة اللغة في الاستعمال، كما تعنى بدراسة مقاصد المنتج (المرسل)، كما تعنى بكيفية حدوث التواصل، وبيان الاستراتيجيات التي استعملها المرسل لتحقيق التواصل، ومن ثم فإن الاستراتيجية تعني أن التواصل هو فعل مخطط له وموجه لتحقيق أهداف معينة، وقد حددت وظائف اللغة في ست وظائف معروفة، وأضاف الباحثان (براون ويول) وظيفتان للغة هما: التعاملية والتفاعلية.

الوظائف التعاملية: وتستخدم لنقل المعلومات المتعلقة بالوقائع والأقوال، وتوجيهها إلى المتلقي مثل الخطابات التي تحتوي على إرشادات الطبيب أو تعليمات المعلم لتلاميذته، أو توجيهات القائد لأتباعه أو نصائح الخطيب لمستمعيه.

الوظائف التفاعلية: أما الوظيفة التفاعلية فهي التي تقوم بإقامة علاقات اجتماعية تواصلية من خلال لقاء يتم فيه التعارف بين شخصين، يذكر كل واحد منهما اسمه ووظيفته ورقم هاتفه ومكان إقامته...، وسماها الباحث (مالينوفسكي)لغة المجاملات ولها وظيفة اجتماعية.

وهناك وظيفة أخرى للغة تسمى **وظيفة التعمية،** وهي أن يعمد أحد طرفي الخطاب إلى حجب مقاصده، فلا يفهم أحد من الحاضرين شيئا، ويفعل هذا عن قصد كاستراتيجية لإخفاء مقاصده عن مستمعيه، ومن ذلك أن يعمد الإنسان إلى الاعتذار، عندما يقترف خطأ يثير مشاعر سيئة لدى الآخرين، فيبادر إلى إنجاز فعل لغوي بهدف تحسين صورته ويكون خطابه في صورة شرح أو دفاع أو تبرير أو اعتذار أو طلب السماح من الآخرين كاستراتيجية يستعملها المتكلم لتبرير شيء، ومن هنا ندرك مدى القوة التي يتمتع بها الخطاب اللغوي من خلال الاستعمال، ومنه نجد الاعتذار الذي تقدم به سيدنا موسى عليه السلام للرجل الصالح قال: ﴿**قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا**﴾ [الكهف، 73] فقد اعتذر على نسيانه وطلب عدم المؤاخذة[1].

وقد قسم الباحث "عبد الهادي بن ظافر الشهري" الاستراتيجيات إلى أربع استراتيجيات ونذكرها كما يلي:

1- **الاستراتيجية التوجيهية:** وهي الخطاب الموجّه إلى المرسل إليه، لحمله على القيام بفعل أو الامتناع عنه[2]، ويسميها "جاكبسون" الوظيفة الإيعازية أو (الندائية) كما في النصيحة والرجاء والحث، وهذه المقاصد هي ما يبتغي المرسل إنجازه. والتوجيه يصنفه الباحث "محمود نحلة" ضمن الأفعال الطلبية، وهي تضمّ كل الأفعال الكلامية الدالة على الطلب مثل: الأمر والنهي والنداء والتحذير والحث والإرشاد والدعاء ...

2- **الاستراتيجية التلميحية:** وهي أن يتعمد المتكلم أسلوب التلميح بدل التصريح والإشارة بدل العبارة. فالتلميحية إذن هي التي يعبر بها المرسل عن القصد، بما يغاير المعنى الحرفي لينجز بها أكثر مما يقوله مستثمرا في ذلك عناصر السياق، واستعمال الكناية والاستعارة والتمثيل، فتصبح البنية اللغوية الظاهرة مجرد ممر. وهذه الاستراتيجية تفعّل مبدأ التعاون

والثقة، ويعتمد المرسل في إنتاج خطابه على توظيف ما لدى المرسل إليه من معرفة بالعالم، ومن أمثلته في القرآن الكريم، قوله تعالى:

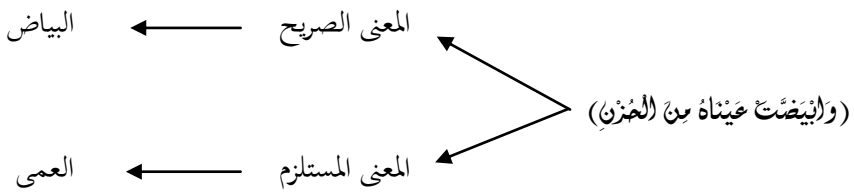

3- **الاستراتيجية الحجاجية** (الإقناع):

فقد جعلها "روبول" من وظائف البلاغة، وتستعمل فيه أدوات خاصة منها ألفاظ التعليل، ومنها المفعول لأجله وكي، والأفعال اللغوية. والهدف من هذا الخطاب هو إزالة شك المرسل إليه، "فتكون إذ ذاك أقدر على التأثير في اعتقاد المخاطب، وتوجيه سلوكه لما يصحب هذا الإقناع من قوة في استحضار الأشياء، ونفوذ في إشهادها للمخاطب كأنه يراها رأي العين".[3]

ويستعمل المرسل الاستفهام أو النفي أو الإثبات في الحجاج على أنها الحجاج بعينه. ويعد الاستفهام من أنجع الأنواع حجاجا، والأسئلة التي تنتمي إلى الاستفهام التقريري يكون بها الحجاج أشد إقناعا، وأقوى حجة. ومن الحجاج نلاحظ قول الشاعر:

غضّ الطرف فإنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

فالطلب جاء في قوله غض الطرف. والحجة جاءت في قوله: فإنك من نمير.

4- **الاستراتيجية التضامنية:**

وهي الاستراتيجية التي يحاول المرسل أن يجسد بها درجة علاقة المرسل إليه ونوعها إذ يختص التضامن بالمسافة الاجتماعية بين الناس مثل:

- مدى التشابه /الاختلاف الاجتماعي.
- مدى تكرار الاتصال.
- مدى امتداد المعرفة الشخصية، والتقارب الديني.

- درجة التآلف، أو كيفية معرفة طرفي الخطاب لكل منهم.
- مدى الشعور بتطابق المزاج أو الهدف أو التفكير.
- الأثر الإيجابي /السلبي.

وقد أضاف "عبد الهادي بن ظافر الشهري" في طبعته الجديدة لكتابه استراتيجيات الخطاب، استراتيجية خامسة وسماها الاستراتيجية السيميائية.

5- **الاستراتيجية التوجيهية:** وهي التي تهتم بتوجيه الخطاب إلى المرسل إليه وهو صنفان:

الأول: مرسل إليه متخيل: وهو غير حاضر لحظة إنجاز الخطاب (غائب)

الثاني: مرسل إليه حاضر: وهو حاضر لحظة التلفظ بالخطاب، فيكون معروفا عند المرسل معرفة جيدة، وعليه يتراوح استعمال الأدوات والآليات اللغوية بين الصنفين.[4]

والتوجيه ليس عملا لغويا فحسب، لكنه يعد وظيفة من وظائف اللغة التي تعنى بالعلاقات الشخصية حسب تصنيف "هاليداي"، إذ إنّ اللغة تعمل على أنها تعبير عن سلوك المرسل وتأثيره في توجهات المرسل إليه وسلوكه، من أجل ذلك فإنها تمتلك قوة المخالفة كما في الأمر والنصيحة والرجاء، وهذه المقاصد هي ما يبتغي المرسل إنجازه[5]، غير أنّ نظام اللغة هنا غير كاف لأداء هذه الوظائف، فهناك بعض العناصر التي تعطي التوجيه قوته الإنجازية ومنها: السلطة وجهة المنفعة الإنجازية التي تعود إلى المرسل أو المرسل إليه، فقد تكون نتيجة الفعل التوجيهي الأمري ملزمة للمرسل إليه عبر سلطة المرسل الموجهة للخطاب[6].

وتتفاوت هذه العلاقة (السلطة)، ولإعطاء الخطاب سلطة المرسل فإنه يتضمن الضمائر والإشاريات الشخصية، التي تحيل على المرسل وسلطته، أو كل ما يحيل على ذاته الاجتماعية و الوظيفية، مثال: سوف أعاقب كلّ المخالفين، فتوفر السلطة شرط أساس في التوجيه حتى لو كانت السلطة مختبئة وراء المرسل مثل : السلطة الدينية التي تسوغ استعمال هذه الاستراتيجية[7].

وقد تؤول منفعة الخطاب إلى المرسل إليه تعويلا على حاجته هو، مما يوجب عليه الالتزام بمقتضى الفعل التوجيهي؛ لأن مخالفته تحرمه من تحقيق ما يسعى إليه مثل: حاجة

عابر السبيل حين يسأل عن الطريق فيجاب بمجموعة أوامر مثل: واصل السير، اتجه يمينا استدر، انحرف. فالسائل يطيع دون تردد ولهذا فإن معيار المنفعة يجعل حكم أفعال التوجيه تتأرجح بين اثنين إما الوجوب أو الندب والاستحباب، وإذا كانت تؤول المنفعة إلى المرسل فأفعال التوجيه واجبة الطاعة، أما إذا كانت لصالح المرسل إليه فحكمها الندب(8).

وتتسم هذه الاستراتيجية بالوضوح في التعبير عن قصد المرسل، فذلك يزيل حيرة المرسل إليه مما يضمن تحقيق الهدف؛ لأنه لا يستطيع ذلك إلا إذا كان الخطاب غامضا أو يحتمل أكثر من تأويل، وعليه فإن من مميزات التوجيه الصريح أنه لا يستلزم أكثر من قصد للخطاب وبالتالي فإنه لا يدع للمرسل إليه أي فرصة للتأويل أو التملص من مضمونه.

والمرسل قد يستعمل الخطابات التي تنطوي على الفعل اللغوي الصريح من الدرجة الثانية؛ أي التصريح بالفعل معجميا مثل: أنا آمرك أن تسكت، بدلا من الأساليب الصريحة من الدرجة الأولى مثل: (أسكت)، ويمثل استعمال درجة الصراحة الثانية تدنيا في مراعاة العلاقة العاطفية مع المرسل إليه، لما تتصف به من قوة، ولهذا يمكن استعمالهما معا مثل: أنا أنهاك عن التلاعب، لاتعبث بحاجتك. لتلطيف حدة أحدهما بمرونة الآخر النسبية(9).

مسوغات استعمال الاستراتيجية التوجيهية : وهي مسوغات كثيرة نذكر منها :

1- تصحيح العلاقة وإعادتها إلى سيرتها الأولى، إذا كان التعامل بالاستراتيجية التضامنية قد يؤثر على سير العلاقة، أو يقلل من هيبة المرسل.

2- إصرار المرسل على تنفيذ قصده عند إنجاز الفعل إحترازا من سوء الفهم أو التأويل الخاطىء.

3- حصول تحد واضح للمرسل أو لتعليماته أو الإساءة إليه أو تجاوز صلاحياته.

والتوجيهية يصنفها "محمود نحلة" ضمن الطلبيات، وهي تضم كل الأفعال الكلامية الدالة على الطلب، بغض النظر عن صيغتها وهو أمر أخذ به الأصوليون والفقهاء وبعض المتكلمين، ويصنفها ليتش ضمن الأفعال التنافسية حسب تصنيفه الرباعي للأفعال؛ لأنها تتضمن قصد المرسل بأن الفعل المرسل إليه ما يوجهه به، كما يسمي التوجيه والأوامر

بأفعال الإكراه وذلك لما تسببه من حرج اجتماعي للمرسل إليه وإلزامه بإجابة الدعوة وتدخل عناصر اللباقة والتودد والتعفف والتأدب والاختيار والتلميح والوضوح وغيرها من قواعد الكفاية التداولية، والتي يمكن إدراجها في المقابل العربي مخاطبة خالي الذهن خطاب المتردد أو العكس، أو تنزيل الخالي منزلة المنكر للخبر، وهناك دراسات تتعلق بأفعال التوجيه كمبدأ التعاون عند "غرايس" إذ يسهم في ضبط هذه الأفعال في دلالتها عن القصد.

أما "سيرل" فقد جعل التوجيهيات هي كل محاولات المرسل للتأثير في المرسل إليه، ليقوم بعمل معين في المستقبل، وجعلها درجات أدناها مثل الاقتراح أو الدعوة لفعل شيء وأعلاها الإكراه عند فرضها بالقوة، ويكون محتواها القضوي دالا على إرادة عمل شيء في المستقبل.

هكذا في البداية متدرجة من التواضع واللين لتصل إلى الإكراه، والأفعال هي السؤال والطلب والالتماس والتضرع والتوسل والاستجداء والاستعطاف والإذن والتشجيع والنصح والتحديات والاعتراضات، أما "أوستين" فقد صنف هذه الأفعال في السلوكيات، وأما "براون" و"ليفنسن" فقد أوردا ما يتعلق بالتأدب ضمن الأفعال التي تهدد وجه المرسل إليه بشقيه الجالب والدافع، وتقع التوجيهية بالاستراتيجية الصريحة وهي التي تخلو من الأدوات اللغوية التي تلطف الخطاب كقوله إفعل كذا [10]. ومن أفعال التوجيه نذكر ما يلي:

– **أفعال النصح**: مثل : الحث والنصح والتحذير والإشارة والعرض والتوصية والاقتراح والإنذار... ويجعل "باخ" لهذه الأصناف افتراضات مسبقة تنحسر في قاعدتي الكم والكيف فالكم بتقديم المرسل المعلومات الضرورية، والكيف يكون المطلوب ممكنا ومبررا[11].

أفعال التوجيه: ومن أدوات أفعال التوجيه ذكر العواقب، والتوجيه بألفاظ المعجم وربط إنجاز الفعل بالوعد أو الوعيد، وقد تتضح النتائج بالشرط مثل: من يسدد ديني فيجزيه الله.

التوجيه المركب: ويكون باستعمال أكثر من أسلوب ك "الأمر" و"النهي" المتضادين في خطاب واحد.

التوجيه بالأمر: وهو صميم الأفعال التوجيهية، ويمثل الأمر جزءا من الأفعال التوجيهية كما صنفه التداوليون، وجعله بعض العرب قسما مستقلا من أقسام الكلام، ولإجرائه على

حقيقته لابد من شيئين: الصيغة والسلطة، فيكون حكمه حقيقة في الوجوب، كما أن وجهة المنفعة هي من العناصر المؤثرة.

يقول "علي حسب الله": "إن الندب توجيه إلى ما يرجى به ثواب الآخرة، والتأديب توجيه إلى ما يهذب الأخلاق ويصلح العادات، والإرشاد توجيه إلى ما فيه مصلحة دنيوية"[12].

وليست العملية التوجيهية الأمرية لغوية بحتة، بل لغوية تداولية، إذ ليس الوضع اللغوي هو المعيار الأوحد، بل لابد أن تعضده مرتبة المرسل، ويعد الأمر من أكثر الأساليب استعمالا في التوجيه، ومن صيغه (الفعل والاسم والأمر وصيغ صرفية مثل: الفعل المبني للمجهول وشبه الجملة والمصدر النائب عن فعل الأمر مثل: إحسانا وضربا)، وقال "الغزالي": "إن قول الشارع أمرتكم بكذا وأنتم مأمورون بكذا أو قول الصحابي أمرت بكذا، كل ذلك صيغ دالة على الأمر، وإذا قال أوجبت عليكم أو فرضتم عليكم أو أمرتكم بكذا، وأنتم معاقبون على تركه فكل ذلك يدل على الوجوب"[13].

ومن تنوعات الأمر استعمال الفعل الماضي من (أمر) كقول الإمام علي كرم الله وجهه: "هذا ما أمر به علي أمير المؤمنين مالك ابن الحارث حين ولّاه مصر جباية خراجها وجهاد عدوها واستصلاح أهلها".[14] وهو بذلك ينجز فعل الأمر لحظة التلفظ وليس يخبر عن الماضي.

ويستعمل المرسل الأسلوب الخبري لإنجاز فعل التوجيه مثل: الطلاب الناجحون ينتظرون هنا، ولكن الداعم لذلك هو السلطة، أما شبه الجملة فيعتمد على المعرفة اللغوية للطرفين، وما يستلزم الحذف مثل: إليك عني، إلى المسجد ...، ويعتمد المرسل في استعمال أسماء الأفعال على كفاءة المرسل إليه اللغوية والتداولية مثل: صه وهيهات، والغرض منها الإيجاز والاختصار والمبالغة، أما التوجيه بألفاظ المعجم فهو مثل: أوصيكم، استوصوا أحثك على التواصل، التدخين يضر بصحتك.

- **تحليل نماذج من خطابات الشيخ الابراهيمي:**

تناول البشير الابراهيمي في خطاباته الكثير من القضايا الوطنية والسياسية والدينية والإسلامية والعربية والعالمية، والاجتماعية والتربوية، ووجه الناس إلى العلم والتعلم وحث المعلمين على ترسيخها في عقول التلاميذ، حتى ينشأوا نشأة صالحة، كان المجتمع الجزائري في تلك المرحلة بحاجة إلى تعليم وتربية، والمعلمون بحاجة إلى توجيه وتهذيب، لأن المجتمع ينتظر منهم الكثير، وينتظر منهم الإسهام الفعال في تكوين جيل يؤمن بقيم الهوية والوطنية وتحصينه من الأفكار التغريبية والاستلاب الحضاري، ومن أجل ذلك قدم الشيخ هذه التوجيهات، لإنقاذ الأجيال من الجهل والإحباط، ومن أساليب الاستلحاق الاستعماري والانسلاخ من الهوية الوطنية.

وليست العملية التوجيهية الأمرية لغوية بحتة، إذ لابد أن تعضده مرتبة المرسل، وهي القوة التي تمنح السلطة للأمر، فشخصية الإبراهيمي بمنزلة السلطة العالية في نفوس المتلقين فهو الرمز الوطني والأب الروحي والرائد الإصلاحي والعالم الثائر والمربي المخلص، وقد عبر عن هذه الشخصية المالكة لسلطة الأبوة في إحدى مقالاته إلى المعلمين قائلا لهم: "أرسلنا إليكم التحية الأبوية الخالصة صادرة عن قلب يكن لكم الحب والتقدير والشفقة". وقوله: "إننا يا أبنائي كنّا أول من نام وآخر من استيقظ".

ونذكر فيما يلي بعض الأمثلة من الخطاب التوجيهي بوصفه استراتيجية اختارها الكاتب في مقالاته سنتي 1948 و 1949، ونشرت في مجلة البصائر يقدم فيها توجيهات مختلفة إلى المعلمين وإلى الشباب وإلى عامة الناس تحت عنوان "كلمات واعظة لأبنائنا المعلمين الأحرار"[15] (نشرت في العدد 94 من جريدة البصائر سنة 1949م)

"أيها الأبناء البررة: أرسلنا إليكم تلك التحية الأبوية الخالصة صادرة عن قلب يكن لكم الحب والتقدير والشفقة ... ها أنتم تبوأتم من مدارسكم ميادين جهاد، فاحرصوا أن يكون كل واحد منكم بطل ميدان". قال هذا الكلام وهو يخاطب المعلمين بأنهم في موضع جهاد في مدارسهم، حين يؤدون وظيفتهم التعليمية، ثم أمر كل واحد منهم أن يحرص في

أن يكون بطل ميدان، فالوظيفة التوجيهية يعبر عنها الفعل الكلامي الأمري (احرصوا) ويدل الفعل على طلب في الحال بالسعي على وجه الإلزام بإثبات البطولة في الميدان وهو ميدان التعليم، فالفعل الكلامي هنا استعمله الشيخ ليحث الآخرين على الحرص المطلوب وغرضه الإنجازي هو توجيه المخاطبين إلى الفعل والتأثير فيهم واتجاه المطابقة هو رغبة المتكلم في جعل العالم يلائم الكلمات ويرمز لذلك بـ (س يريد ص) وشرط الإخلال يتمثل في قدرة المتعلمين على أداء المطلوب منهم فبإمكانهم أن يكونوا أبطالا في الميدان وهذا هو المطلوب وقيد البطولة بالميدان دون سواه، ويعبر فعل الحرص عن قوى إنجازية مستلزمة مقاميا هي الإرشاد والحث والترغيب والنصح، ويؤدي هذا التوجيه وظيفة إيعازية كما يسميها رومان جاكبسون، وهي تتمثل فيما يريده الشيخ من المعلمين.

وقد أسهمت سلطة الكاتب في إعطاء التوجيه قوة إنجازية، وسلطته مستمدة من منزلته الاجتماعية، ودوره الإصلاحي وإشرافه على إدارة مدارس جمعية العلماء، فبمجرد نطق المتكلم بصيغة الأمر أضفى على نفسه مرتبة الآمر ووضع الآخر في مرتبة المأمور[16].

كما يتميز التوجيه هنا بالوضوح في التعبير عن قصد المتكلم الواضح الذي لا يحتاج إلى تأويل، ومن أدوات التوجيه التي تسهم في تعديل القوة الإنجازية من الدرجة الأولى التوجيه بالألفاظ الصريحة في قوله: (احرصوا). وقد اختار الكاتب الاستراتيجية التوجيهية في مخاطبة المتعلمين وحثهم على النهوض بالمدرسة، والحرص على التمكن في ميدانها والتفوق في خدمتها، وهذا المجال يحتاج إلى توجيه صريح في خطابه وأهدافه، لأن هذه الاستراتيجية تهتم بتوجيه الخطاب إلى المرسل إليه، وهو هنا مرسل إليه متخيل (غائب) وهو غير حاضر لحظة إنجاز الخطاب، لكنه معلوم في السياق معروف عند المرسل معرفة جيدة فهو يخاطب كل المعلمين الذين يشرفون على تعليم التلاميذ في مدارس جمعية العلماء المسلمين في أواخر الأربعينيات من القرن الماضي، وجعل المدارس ميادين جهاد تتطلب بطولة وتضحية، وأن كل واحد منهم واقف على ثغر من ثغور البلاد، فلا يؤتى الوطن من قبله.

إنّ هذه الاستراتيجية تعدّ وظيفة من وظائف اللغة التي تعني بالعلاقات الشخصية حسب تصنيف (هاليداي) إذ أن اللغة تعمل على أنها وسيلة تأثير المتكلم في توجيهات

المرسل إليه وسلوكه، غير أن نظام اللغة هنا غير كاف لأداء المقاصد مما يقتضي تدخل بعض العناصر الخارجية التي تعطي التوجيه قوته الإنجازية[17]، التي تعود إلى المرسل إليه تعويلا على حاجته، وهي هنا القيام على شؤون الدراسة وتنظيم المدارس، فهي جزء منها مما يوجب عليه الالتزام بمقتضى الفعل التوجيهي، وهو الحرص على تحقيق البطولة الميدانية التي هي المحك الحقيقي للرجال، لأن مخالفته ذلك تحرمه من تحقيق ما يسعى إليه، فتجعله مجرد ماضغ أقوال لا بطل أعمال، كما يقول الشيخ الابراهيمي، وقد عبر الكاتب عن ذلك بإضافة المدارس إلى ضمير المخاطبين بقوله: (مدارسكم) إشعارا بأن المدارس مدارسهم لا مدارس جهة أخرى. والتوجيه والأوامر يسميها (ليتش) أفعال الإكراه، فالأمر الصريح هنا (احرصوا) فيه طلب يسبب للمرسل إليهم حرجا اجتماعيا، ويلزمهم بإجابة الدعوة والامتثال للمحتوى القضوي الذي يجسد إرادة المتكلم، ولا يخفى ما في خطاب الشيخ هنا من لباقة وتأدب وتودد لتحقيق الغرض التهذيبي إلى جانب الغرض التبليغي وهذا يكشف عن نضج الكفاية التداولية لدى المتكلم.

ومن الأدوات غير اللغوية لأفعال التوجيه والتي تقوي إنجازية الفعل ذكر العواقب[18] المترتبة على الفعل أو الترك، وقد صاغ الكاتب عبارته وفق بناء منطقي يبرز المهمة المنوطة بالمكلفين وهي أن المدارس ميادين جهاد، والجهاد فريضة وواجب، ومن ثم وجب عليهم آداء الفرض الواجب وهو أن يكونوا أبطال ذلك الميدان، مع حرصهم على تحقيق ذلك؛ أي أن الحرص دافع داخلي قائم على قناعة يساعد على تحقيق المطلوب، فقد ربط الكاتب الغرض بالواجب الديني والوطني، ليكون حافزا للمخاطبين لإنجازه باعتباره واجبا لا ينبغي التقاعس عنه، وهذا من بديع بلاغة الشيخ الابراهيمي، فذكر العواقب ممثلة في مخاطر التخلي عن الواجب، وفي ذلك طاقة حجاجية إقناعية، والإرشاد هنا توجيه إلى ما فيه مصلحة دنيوية، ببناء الأجيال وتعليم الناشئة وتحرير البلاد.

وقال في نموذج آخر (ج2/ص 288): "وها أنتم هؤلاء خلفتم مرابطة الثغور من سلفكم .. فاحذروا أن تؤتى أمتكم من ثغرة يقوم على حراستها واحد منكم فيجلب العار والهزيمة لجميعكم". وهذا الخاطب يتضمن صنفا من أفعال التوجيهيات Directives وهو التحذير.

يتوجه الخطيب فيه بالخطاب إلى المعلمين الأحرار المنتمين إلى جمعية العلماء المسلمين ليؤكد لهم أنهم على ثغر من ثغور الوطن، وقد خلفوا فيه من سبقهم في المرابطة على هذه الثغور وهي ثغور المدرسة، ويحثهم على أن يكونوا خير خلف لخير سلف، موظفا الفعل الكلامي التحذيري كاستراتيجية توجيهية في قوله: (فاحذروا) أن تؤتى أمتكم من ثغرة يقوم على حراستها واحد منكم، والتحذير من أفعال التوجيه عند "سيرل"، ولقد اختار الكاتب صيغة الفعل الأولي؛ أي التصريح بالفعل معجميا (فاحذروا) وهو فعل كلامي صريح، في التحذير والتخويف والوعيد، وتوجيه المرسل إليه وإلى ما فيه المنفعة العامة، فالتحذير من آليات التوجيه، إلا أنه من الأدوات ذات المرتبة الدنيا في القوة، وتزيد درجة الصراحة بذكر الفعل (احذروا)، لكنه تحذير شديد تدعمت قوته الإنجازية بذكر ما يترتب على الفعل أو الترك أو عدم الالتزام، ففي الموقف تخويف من ارتكاب المحذور، ويراد بالتحذير "محاولة المتكلم توجيه المتلقي إلى فعل شيء ما أو التأثير عليه ليفعل شيئا معينا"[19].

وشرط الإخلاص فيها هو الرغبة الصادقة أو الإرادة، وهو من الخطاب اللين "ومن الجائز أن تكون المحاولات لينة جدا، وربما تكون محاولات عنيفة جدا"[20]، وقد استوفى فعل التحذير هذا شروط الملاءمة، فالمطلوب فعل في المستقبل ينجزه المخاطب؛ أي احذروا أن يدخل العدو من ثغرة أنتم مرابطون عليها وهي ثغرة التعليم، فلا يجوز الاستهانة بالموضوع والمخاطب على يقين من قدرة المتلقين على إنجاز الفعل على قدر وعيهم وثباتهم.

ولتقوية التوجيه في هذا التحذير، ذكر الكاتب العواقب المترتبة على ترك الثغور التي يحرسونها، وقد صرح الكاتب بهذه العواقب أن تؤتى أمتكم من ثغرة يقوم على حراستها واحد منكم، فيجلب العار والهزيمة لجميعكم، فهذه عواقب خطيرة على الأمة بأسرها، فهذا التحذير من العواقب يحفز على العمل والالتزام وتحميلهم الأمانة، بما يشجع على إنجاز الفعل التأثيري وهو الامتثال للطلب، وأبرز الكاتب أن الهزيمة والعار قد يكون المتسبب فيها شخص واحد، فيجلب العار والهزيمة لجميعكم، وهذا معنى الوعيد الذي تضمنه فعل التحذير، فقد توعدهم بالعار والهزيمة إن تخاذلوا عن القيام بالواجب المطلوب.

وفي نموذج آخر يقول الشيخ (ج 2 / ص 295): "إن كثيرا منكم في حاجة إلى الاستزادة من التحصيل لو تيسرت لهم أسبابه ... فاعرفوا كيف تدخلون من باب التعليم إلى العلم".

وفي هذا السياق يوجه الشيخ المعلمين إلى الاستزادة من العلم – بسبب اشتغالهم بالتعليم – فليس لهم الوقت للاستزادة من العلم، وقد ذكر ذلك مرتين في صورة توجيه مركب باستعمال الصيغة الإخبارية في الأولى، واستعمال الصيغة الأمرية (اعرفوا) في الثانية ومن ثم فهو يقرر أن المعلم لا يتوقف عن التحصيل العلمي والاستزادة من العلم، ولتأكيد القوة الإنجازية للأمر استعمل أداة التوكيد (إنّ) وفي الطلب بالإخبار قوة وبلاغة وتوجيه لطيف فيه، التأدب والتهذيب بأن جعل الاستزادة من التحصيل مطلبا ذاتيا داخليا يشعر به المخاطب، لا أمرا خارجيا يقدمه ويفرضه الغير، وفي الأمر الثاني توجيه صريح بفعل الأمر (أعرفوا)، ويتضمن هذا التصريح قوة إنجازية غير مباشرة هي النصح والإرشاد، وهذا هو المعنى المستلزم مقاميا، الذي يعرف من السياق والمقام وقرائن الأحوال، وسياقه أن المتكلم على علم بأن المعلمين التحقوا بمهنة التعليم وهم طلاب، وقد شغلتهم الوظيفة عن التعلم وهم بحاجة أيضا إلى الاستزادة من العلم ولذلك قال: (لو تيسرت لهم أسبابه) ثم قدم الطريقة التي يقترحها عليهم، لاستكمال التعلم دون التوقف عن الوظيفة ، وهي أن يدخلوا من باب التعليم إلى العلم، بأن يكون الواحد منهم معلما ومتعلما في آن واحد، فهو يتعلم من تلك الدروس ومن تلك الموضوعات ومن تلك الخبرات، ويعرف كيف ينمي ملكاته ويطور كفاياته، فيكون معلما ناجحا. ولقد نوع الكاتب في طرق الخطاب، منتقلا من الأمر الضمني إلى التوجيه الصريح.

إن معيار العلاقة بين طرفي الخطاب العمودية يحدد مراتب المتخاطبين، ومن ثم يتحدد المستوى التركيبي المناسب للموقف الكلامي، ولذلك تسهم رتبة المتكلم في تقوية فعل التوجيه، وتبرر استخدام الاستراتيجية التوجيهية بحكم سلطته المعنوية والاجتماعية.

وقد أسهمت الشروط التأسيسية في نجاح هذا الفعل الأمري التوجيهي، فشرط المحتوى القضوي هو فعل في المستقبل أي الاستزادة من العلم، ما رآه المتكلم من قدرة المخاطبين على إنجاز الفعل (لو تيسرت لهم أسبابه) فذلك شرط تمهيدي، والمتكلم لا يريد أنصاف

المعلمين فذلك شرط أساسي في إحداث المطابقة، وشرط الصراحة ممثل في تعبير الشيخ عما يعتقده ويريده، وما يأمله ويرجوه من المخاطبين[21].

وفي مثال آخر قال الشيخ مخاطبا المعلمين (آثار البشير الابراهيمي ج 2 / ص 295):
"... ومن مدخل القراءة إلى الفهم وتوسعوا في المطالعة يتسع الاطلاع، ولا يصدنكم الغرور عن أن يستفيد القاصر منكم من الكامل، والكامل ممن هو أكمل منه".

وهنا مجموعة من الأفعال التوجيهية الأمر والنهي، وفي نفس السياق يواصل الشيخ تقديم توجيهاته إلى المعلمين، سواء فيما يتعلق بجانب المتعلمين أو ما يخصهم أنفسهم، لتكوين معارفهم وتكميل تحصيلهم على الرغم من انشغالهم.

استهل بالفعل الكلامي الأمري (اعرفوا كيف تدخلون من مدخل القراءة إلى الفهم) ثم جاء الأمر الثاني في قوله (وتوسعوا في المطالعة يتسع الاطلاع) فهو أمر صريح بالتوسع في المطالعة، والاستزادة منها، فهي تنمي معارف المعلمين، ويتسلحون بها في مواجهة المتطلبات التعليمية، ووراء الأمر فعل كلامي غير مباشر دلت عليه القرائن، وهو النصح والإرشاد، وقد وردت هذه الأفعال مستكملة الشروط التأسيسية، وتبرز رغبة المتكلم بإنجاز فعل في المستقبل، مع وفرة الاستعداد من قبل المخاطبين، وأن المطلوب كان في متناولهم فإن سعوا إليه اكتسبوه، وإنما العلم بالتعلم والاطلاع، ثم اقتضى المقام إيراد فعل النهي (لا يصدنكم الغرور) للتعبير عن توجيه مركب، يتكون من الأمر بالتوسع بالمطالعة والنهي عن الغرور، المانع من عدم الاستفادة من الآخرين، فبذلك تكتمل الشخصية العلمية للمربي ويتضمن النهي فعلا كلاميا غير مباشر هو التحذير، مع بقاء القوة الإنجازية لفعل النهي مضمرة في الجملة، فالشيخ يحذر المعلمين من آفة خطيرة هي الغرور.

كما يتضمن النهي أيضا قوة إنجازية غير مباشرة هي الحث على التواضع في الإقبال على العلم، بالنهل من جميع مناهله دون تكبر أو استعلاء، فقد يأخذ العلم من نظرائه، أو ممن هم أكمل منه، فلا يفتح الباب للغرور الذي يكون سببا في عدم الاستفادة من هؤلاء فتضيع فرص التعلم.

وأفعال التوجيه لا تستمد قوتها من البنية اللغوية للفعل، فحسب إنما تستمد قوتها أيضا من سلطة المرسل، فالابراهيمي هنا يخاطب المعلمين من مرتبة المسؤول، الذي يتحمل المسؤولية وما يمليه عليه الواجب، فقد قال: (أنا أخاطبكم لأنني أحمل الأمانة وأتحمل المسؤولية، وأن هذا عملي وهذه مهمتي التي أقامني الله عليها) فهو يخاطبهم من منطلق مكانته ورتبته الاجتماعية والدينية، كل هذا يعطي للفعل الكلامي قوة ومصداقية، ويمكنه من استيفاء شروط الملاءمة، مما يؤدي إلى نجاح الأفعال، ومن ثم يحقق التوجيه فعاليته ويتحقق الفعل التأثيري متجسدا في امتثال المخاطبين للطلبات، وأن يستكملوا تعليمهم بالقراءة وبالتوسع في المطالعة، وعدم الغرور بترك الاستفادة من الآخرين فبذلك تكتمل شخصية المعلم، ويكون المتكلم قد أنجز أفعالا بأقوال، ويسهم بمواقفه في التغيير بالتوجيه وإقامة الحجة.(22)

وقال الشيخ مخاطبا المعلمين: (آثار محمد البشير الابراهيمي ج2/ ص288) "واعلموا أنكم عاملون فمسؤولون عن أعمالكم فمجزيون عنها من الله ومن الأمة ومن التاريخ، ومن الجيل الذي تقومون على تربيته ... إن حاجتنا إليكم هي أن تنقذوا هذا الجيل الناشيء من الأمية التي ضربت بالشلل على مواهب آبائهم، وأن تحببوا إليهم العربية وتزينوها في قلوبهم وأن تطبعوهم على التآخي والتعاون على الخير، وأن تربوهم على الفضيلة الإسلامية التي هي مناط الشرف والكرامة والكمال".

ويستمر الشيخ في توجيه المعلمين إلى المنهج التربوي الصحيح، ويحثهم على الممارسة الإيجابية لعملية التعليم، ويحدد لهم المهام الأساسية المنوطة بهم، موظفا الاستراتيجية التوجيهية، وتوسل إلى ذلك بسلسلة من الأفعال الكلامية المباشرة وغير المباشرة، مستندا إلى سلطته الموجهة، وقد استهل هذه الأفعال بالأمر الصريح في قوله: (واعلموا) والمراد به أن يكون المعلمون على بينة برسالتهم التي كلّفوا بها، وبين لهم أنهم عاملون في هذا الحقل وذكر ما يتبع ذلك أنهم مسؤولون عن أعمالهم ومجزيون عنها، فهذه توجيهات صارمة يدل على ذلك المحاسبة عن الأعمال، لتقوية الغرض الإنجازي، وربط ذلك بالعطف الدال على التتابع والتلازم (فمسؤولون، فمجزيون)، ولدعم القوة الإنجازية للفعل الأمري ذكر تفاصيل

الجزاء، فهو يكون من الله ومن الأمة ومن التاريخ ومن الجيل، وفي هذه المعطوفات المتتابعة زيادة تأكيد على ثقل المسؤولية وعظمة الأعباء، التي يتحملها المعلم حين وضعهم أمام ثنائية المسؤولية والجزاء، ومراد المتكلم أن يعرف المخاطب حق المعرفة هذه المتلازمات: عمل فمسؤولية فجزاء، ثم أكد القوة الإنجازية باستعمال أداة التوكيد (أن)[23].

خاتمة:

تناولنا في هذه الدراسة الاستراتيجية التوجيهية في خطاب البشير الابراهيمي، ودواعي اختياره هذه الاستراتيجية وملامحها في كتاباته، انطلاقا من تحليل أمثلة مختارة من كتاباته في مجال التربية والتعليم.

إن استراتيجيات الخطاب هي قضية من قضايا التداولية، التي تتناول استعمالات اللغة في مختلف السياقات وطرق التعبير عنها، والاستراتيجية التوجيهية هي واحدة من خمس استراتيجيات يبني الكاتب خطابه وفقها، باعتبار الموضوع ومراعاة الظروف التاريخية والسياقات الثقافية ومقتضيات المرحلة.

ودراسة الاستراتيجية المختارة من منظور تداولي يقتضي تناولها في إطار نظرية أفعال الكلام، فهي المنطلق لدراسة الاستراتيجية المستهدفة، وذلك بدراسة مجموعة أمثلة من كتابات الشيخ، تتضمن أفعالا توجيهية وردت في سياقات مختلفة، ومنشورة بجريدة البصائر سنتي 1948م – 1949م.

وقد بينت الدراسة أن الاستراتيجية تهتم بالمخاطب، وأن التوجيه ليس عملا لغويا فحسب؛ إنما هناك عناصر أخرى تعطي التوجيه قوته الإنجازية، ومنها سلطة المتكلم وجهة المنفعة الإنجازية.

ومن خلال تحليل الأفعال الكلامية اتضح أن نتيجة الفعل تتسم بالوضوح في التعبير عن قصد المرسل، بحيث تكون الطلبات واضحة ومحددة.

إن الهدف من التوجيهيات هو محاولات المرسل التأثير في المرسل إليه، ليقوم بعمل معين في المستقبل، ويكون التعبير عن التوجيهيات بالأمر أو النهي أو التحذير أو الوعيد وغيرها، أو الأسلوب الخبري.

وانتهت الدراسة إلى مجموعة من النتائج:

1. الابراهيمي يختار الاستراتيجية التوجيهية لتحقيق أغراض إصلاحية لتلك المرحلة.
2. استخدام الأمر والنهي والتحذير، والتي هي من العناصر اللغوية للتوجيه.
3. تعتمد هذه الاستراتيجية على سلطة المرسل ورتبته.
4. يؤكد الكاتب سلطته الأبوية والقيادية بمجموعة مؤشرات لغوية.
5. المرسل إليه ملزم بالامتثال للتوجيهات المرسلة إليه.

الهوامش والإحالات

(1)– ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1 / 2004م .ص 26.

(2)– ينظر: جورج يول، التداولية، ترجمة: قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، الرباط المغرب، ط 1 / 2010 . ص 90.

(3)– طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2 2000. ص 38.

(4)– ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص 323.

(5)- Voir: Halliday.and Hassan Ruqaiya: Cohessionin english Longman London (1983); p 269 .

(6)– ينظر: عبد الهادي الشهري، المرجع السابق، ص 324 .

(7)– ينظر: عبد الهادي الشهري، المرجع نفسه، ص 325 .

(8)– ينظر: عبد الهادي الشهري، المرجع نفسه، ص 326 .

(9)– ينظر: عبد الهادي الشهري، المرجع نفسه، ص 328 .

(10)– ينظر: عبد الهادي الشهري، المرجع نفسه، ص 336 .

(11)– ينظر: عبد الهادي الشهري، المرجع نفسه، ص 338

(12)– علي حسب الله، أصول التشريع الإسلامي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط7 / 1417هـ ص 186.

(13)– أبو حامد الغزالي، المستصفى في علم الأصول، المطبعة الأميرية بولاق، 1322هـ، 2/ 66.

(14)– الشريف الرضي، نهج البلاغة، شرح: الشيخ محمد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 1990، 1/ 511 .

(15)– آثار محمد البشير الابراهيمي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987م، الجزء 2/288.

(16)– ينظر: عمر بلخير، مقالات في التداولية والخطاب، دار الأمل، الجزائر، 2013م، ص48.

(17)- Voir: Halliday.and Hassan Ruqaiya :Cohessionin english; p 269.

(18)– ينظر: أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، علق عليه: محمد حسنين مخلوف، دار الفكر، 140/3.

(19)– صلاح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أوكسفورد، ط1/1993، ص233.

(20)– علي محمود الصراف، في البراغماتية الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، مكتبة الآداب القاهرة، ط1/2009م. ص 62.

(21)– ينظر: محمد مدور، تداولية الأفعال الكلامية في الخطاب القرآني (سورة البقرة نموذجا) منشورات المثقف، باتنة، ط1/2018، الجزء الثاني. ص11 وما بعدها.

(22)– ينظر: محمد مدور، تداولية الأفعال الكلامية، المرجع نفسه، ج2، ص153.

(23)– ينظر: محمد مدور، تداولية الأفعال الكلامية المرجع نفسه، ج2، ص137.